

فصل في سنة رسول الله ﷺ

الشرح:

* السنة في اللغة: الطريقة، ومنه قال ﷺ: «التركيب سنن من كان قبلكم»^(١)؛ يعني: طريقتهن.

* وفي الاصطلاح: هي قول النبي ﷺ وفعله وإقراره. فتشمل الواجب والمستحب.

* والسنة هي المصدر الثاني في التشريع.

ومعنى قولنا: «المصدر الثاني»: يعني: في العدد، وليس في الترتيب؛ فإن منزلتها إذا صحت عن النبي ﷺ كمنزلة القرآن.

لكن الناظر في القرآن يحتاج إلى شيء واحد، وهو صحة الدلالة على الحكم، والناظر في السنة يحتاج إلى شيئين: الأول: صحة نسبتها إلى الرسول ﷺ، والثاني: صحة دلالتها على الحكم؛ فكان المستدل بالسنة يعاني من الجهد أكثر مما يعانيه المستدل بالقرآن؛ لأن القرآن قد كفينا سنده؛ فسنده متواتر، ليس فيه ما يوجب الشك؛ بخلاف ما ينسب إلى الرسول ﷺ.

فإذا صحت السنة عن رسول الله ﷺ؛ كانت بمنزلة القرآن تماماً في تصديق الخبر والعمل بالحكم:

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء:

(١) رواه البخاري (٣٤٥٦)، ومسلم (٢٦٦٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال النبي ﷺ: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته؛ يأتيه الأمر من أمري؛ يقول: لا ندري! ما وجدنا في كتاب الله؛ اتبعناه، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١).

ولهذا كان القول الصحيح أن القرآن يُنسخ بالسنة إذا صحت عن النبي ﷺ، وأن ذلك جائز عقلاً وشرعاً، ولكن ليس له مثال مستقيم^(٢).

● قال المؤلف: «فَالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ وَتَدُلُّ عَلَيْهِ وَتُعَبِّرُ عَنْهُ».

* قوله: «تفسر القرآن»؛ يعني: توضح المعنى المراد منه: كما في تفسير قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ حيث فسرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله عز وجل^(٣).

(١) رواه أحمد (٤/١٣٢)، وأبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣)، والحاكم (١/١٠٩)، وقد أطال الشيخ أحمد شاکر في تعليقه على «الرسالة» للشافعي (ص ٩) تخريج هذا الحديث وتصحیحه.

وانظر «الحديث حجة بنفسه في العقائد والأحكام» للأباني، فقد صححه.

(٢) وهو قول الجمهور كما حكاها عنهم الشوكاني في «إرشاد الفحول» (ص ١٩١).

(٣) تقدم تخريجه (١/٤٥٢).

وكما فَسَّرَ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»^(١).

* و «تَبَيَّنَهُ»؛ يعني: تبين المجمل منه؛ حيث إن في القرآن آيات مجملة، لكن السنة بيّتها ووضحتها؛ مثل:

قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]: أمر الله بإقامتها، وبيّنت السنة كيفيتها.

وقوله سبحانه: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨].

﴿لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾؛ يعني: من دلوك الشمس إلى غسق الليل؛ أي: غاية ظلمته، وهو نصفه؛ لأن أشد ما يكون في ظلمة الليل نصفه.

فظاهر الآية أن هذا وقت واحد، ولكن السنة فصلت هذا المجمل:

فللظهر: من دلوك الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله.
وللعصر: من ذلك إلى اصفرار الشمس في الاختيار، ثم إلى غروبها في الضرورة.

وللمغرب: من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر.

(١) رواه مسلم (١٩١٧)، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه.

وللعشاء: من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل، وليس هناك وقت ضرورة للعشاء، ولهذا لو طهرت الحائض في منتصف الليل الأخير؛ لم يجب عليها صلاة العشاء ولا صلاة المغرب؛ لأن وقت صلاة العشاء تنتهي بانتصاف الليل، ولم يأت في السنة دليل على أن وقت صلاة العشاء يمتد إلى طلوع الفجر.

وللفجر: من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

ولهذا قال في نفس الآية: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾، ثم فصل وقت الفجر، فقال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: 78]؛ لأن وقت الفجر بينه وبين الأوقات الأخرى فاصل من قبله ومن بعده؛ فنصف الليل الثاني قبله، ونصف النهار الأول بعده.

هذا من بيان السنة حيث بينت الأوقات.

كذلك: ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43]؛ بينت السنة الأنصبة والأموال الزكوية.

* و «تدل عليه»: هذه كلمة تعم التفسير والتبيين والتعبير؛ فالسنة تفسر القرآن وتبين القرآن.

* و«تعبّر عنه»؛ يعني: تأتي بمعانٍ جديدة أو بأحكام جديدة ليست في القرآن.

وهذا كثير؛ فإن كثيراً من الأحكام الشرعية استقلت بها السنة، ولم يأت بها القرآن.

لكن دل على أن لها حكم ما جاء في القرآن مثل قوله تعالى:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أما الحكم المعين؛ فالسنة استقلت بأحكام كثيرة عن القرآن، ومن ذلك ما سيأتينا في أول حديث ذكره المؤلف في هذا الفصل: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا حين يبقئ ثلث الليل الآخر...»^(١)؛ فإن هذا ليس في القرآن.

إذا؛ السنة مقامها مع القرآن على هذه الأنواع الأربعة: تفسير مشكل، وتبيين مجمل، ودلالة عليه، وتعبير عنه.

● ثم قال رحمه الله قاعدة مهمة: «وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ».

* قوله: «وما»: هذه شرطية. وفعل الشرط: «وصف».

«وجب الإيمان بها»: هذا جواب الشرط.

فما وصف الرسول به ربه، وكذلك ما سمي به ربه؛ لأن هناك أسماء مما سمي به الرسول ربه لم تكن موجودة في القرآن؛ مثل (الشافئ)؛ قال النبي ﷺ: «واشف أنت الشافئ، لا شفاء

(١) سوف يأتي الحديث بطوله (١٣/٢)، وهو في الصحيحين.

إلا شفاؤك»^(١).

* «الرب»: لم يأت في القرآن بدون إضافة لكن في السنة قال الرسول ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب»^(٢).

وقال في السواك: «مطهرة للقم مرضاة للرب»^(٣)

وظاهر كلام المؤلف أنه يشترط لقبولها شرطان:

الأول: أن تكون الأحاديث صحيحة.

الثاني: أن يكون أهل المعرفة يعني بالأحاديث تلقوها بالقبول، ولكن ليس هذا هو المراد، بل مراد الشيخ - رحمه الله - أن الأحاديث الصحاح تلقاها أهل المعرفة بالقبول فتكون الصفة هذه صفة كاشفة لا صفة مقيدة.

* فقوله: «التي تلقاها»: هذا بيان لحال الأحاديث الصحيحة أي أن أهل المعرفة تلقوها بالقبول لأنه من المستحيل أن تكون الأحاديث صحيحة، ثم يرفضها أهل المعرفة، بل سيقبلونها.

صحيح أن هناك أحاديث ظاهرها الصحة، ولكن قد تكون معلولة بعلّة؛ كإنتقال على الراوي ونحوه، وهذه لا تعد من الأحاديث الصحيحة.

(١) رواه: البخاري (٥٧٤٢)، ومسلم (٢١٩١)؛ عن عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه مسلم (٤٧٩)، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) رواه البخاري معلقاً مجزوماً (١٥٨/٤)، ووصله أحمد (٦٢/٦)، والنسائي

(١٠/١)، وابن حبان (٢٨٧/٢)، وحسنه البغوي في «شرح السنة» (٣٤٩/١).

قال: «وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا»: لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٥ - ٦٦]... والنصوص في هذا كثيرة معلومة.

واعلم أن موقف أهل الأهواء والبدع تجاه الأحاديث المخالفة لأهوائهم يدور على أمرين: إما التكذيب، وإما التحريف.

فإن كان يمكنهم تكذيبه؛ كذبوه؛ كقولهم في القاعدة الباطلة: أخبار الآحاد لا تقبل في العقيدة!!

وقد رد ابن القيم رحمه الله هذه القاعدة وأبطلها بأدلة كثيرة في آخر «مختصر الصواعق».

وإن كان لا يمكنهم تكذيبه؛ حرفوه؛ كما حرفوا نصوص القرآن.

أما أهل السنة؛ فقبلوا كل ما صح عن النبي ﷺ في الأمور العلمية والأمور العملية؛ لقيام الدليل على وجوب قبول ذلك.

* وقوله: «كَذَلِكَ»؛ يعني: كما يجب الإيمان بما في القرآن؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل.

وقد ذكر المؤلف منها أحاديث عديدة؛ منها.

فصل في أحاديث الصفات

● الحديث الأول في إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا:

وهو قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». متفق عليه^(١).

الشرح:

* هذا الحديث قال بعض أهل العلم: إنه من الأحاديث المتواترة، واتفقوا على أنه من الأحاديث المشهورة المستفيضة عند أهل العلم بالسنة.

* قوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا»: نزوله تعالى حقيقي؛ لأنه كما مرّ علينا من قبل: أن كل شيء كان الضمير يعود فيه إلى الله؛ فهو ينسب إليه حقيقة.

(١) تقدم تخريجه (٩٤/١).

فعلينا أن نؤمن به ونصدق ونقول: ينزل ربُّنا إلى السماء الدنيا، وهي أقرب السماوات إلى الأرض، والسماوات سبع، وإنما ينزل عز وجل في هذا الوقت من الليل للقرب من عباده جل وعلا؛ كما يقرب منهم عشية عرفة؛ حيث يباهي بالواقفين الملائكة^(١).

* وقوله: «كل ليلة»: يشمل جميع ليالي العام.

* «حين يبقى ثلث الليل الآخر» والليل يتبدى من غروب الشمس اتفاقاً لكن حصل الخلاف في انتهائه هل يكون بطلوع الفجر أو بطلوع الشمس والظاهر أن الليل الشرعي ينتهي بطلوع الفجر والليل الفلكي ينتهي بطلوع الشمس.

* وقوله: «فيقول: من يدعوني»: «من»: استفهام للتشويق؛ كقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَجْرَجِ الْمُنِيرِ ﴾ [الصف: ١٠].

* و«يدعوني»؛ أي: يقول: يا رب!

* وقوله: «فأستجيب له»: بالنصب؛ لأنها جواب الطلب.

* «من يسألني»: يقول: أسألك الجنة، أو نحو ذلك.

* «من يستغفرني»: فيقول: اللهم اغفر لي، أو: أستغفرك

اللهم!

* «فأغفر له»: والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

بهذا يتبين لكل إنسان قرأ هذا الحديث أن المراد بالنزول هنا نزول الله نفسه، ولا نحتاج أن نقول: بذاته؛ ما دام الفعل أضيف

(١) كما جاء ذلك في «صحيح مسلم» (١٣٤٨)، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟».

إليه؛ فهو له، لكن بعض العلماء قالوا: ينزل بذاته؛ لأنهم لجؤوا إلى ذلك، واضطروا إليه؛ لأن هناك من حرّفوا الحديث وقالوا: الذي ينزل أمر الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل رحمة الله! وقال آخرون: بل الذي ينزل ملك من ملائكة الله!

وهذا باطل؛ فإن نزول أمر الله دائماً وأبداً، ولا يختص نزوله في الثلث الأخير من الليل؛ قال الله تعالى: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقال: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣].

وأما قولهم: تنزل رحمة الله إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر! فسبحان الله! الرحمة لا تنزل إلا في هذا الوقت! قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]؛ كل النعم من الله، وهي من آثار رحمته، وهي ترى كل وقت!!

ثم نقول: أي فائدة لنا بنزول الرحمة إلى السماء الدنيا؟!

ثم نقول لمن قال: إنه ملك من ملائكته: هل من المعقول أن الملك من ملائكة الله يقول: من يدعوني فأستجيب له... إلخ؟! فتبيّن بهذا أن هذه الأقوال تحريف باطل يبطله الحديث.

ووالله؛ ليسوا أعلم بالله من رسول الله، وليسوا أنصح لعباد الله من رسول الله، وليسوا أفصح في قولهم من رسول الله ﷺ!! يقولون: كيف تقولون: إن الله ينزل؟! إذا نزل؛ أين العلو؟! وإذا نزل؛ أين الاستواء على العرش؟! إذا نزل؛ فالنزول حركة

وانتقال!! إذا نزل؛ فالنزول حادث، والحوادث لا تقوم إلا
بحدوث!!

فنقول: هذا جدال بالباطل، وليس بمانع من القول بحقيقة
النزول!!

هل أنتم أعلم بما يستحقه الله عز وجل من أصحاب الرسول
ﷺ؟!

فأصحاب الرسول ﷺ ما قالوا هذه الاحتمالات أبداً؛ قالوا:
سمعنا وآمنا وقبلنا وصدّقنا.

وأنتم أيها الخالفون المخالفون تأتون الآن وتجادلون بالباطل
وتقولون: كيف؟! وكيف؟!

نحن نقول: ينزل، ولا نتكلم عن استوائه على العرش؛ هل
يخلو منه العرش أو لا يخلو؟!

أما العلو؛ فنقول: ينزل، لكنه عال عز وجل على خلقه؛
لأنه ليس معنى النزول أن السماء تُقلِّه، وأن السماوات الأخرى
تظله؛ إذ إنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فنقول: هو ينزل حقيقة مع علوه حقيقة، وليس كمثله شيء.
أما الاستواء على العرش فهو فعل، ليس من صفات الذات،
وليس لنا حق - فيما أرى - أن نتكلم هل يخلو منه العرش أو لا
يخلو، بل نسكت كما سكت عن ذلك الصحابة رضي الله عنهم.

وإذا كان علماء أهل السنة لهم في هذا ثلاثة أقوال: قول بأنه

يخلو، وقول بأنه لا يخلو، وقول بالتوقُّف.

وشيخ الإسلام رحمه الله في «الرسالة العرشية» يقول: إنه لا يخلو منه العرش؛ لأن أدلة استوائه على العرش محكمة، والحديث هذا محكم، والله عز وجل لا تُقاس صفاته بصفات الخلق؛ فيجب علينا أن نبقي نصوص الاستواء على إحكامها، ونصّ النزول على إحكامه، ونقول: هو مستوٍ على عرشه، نازل إلى السماء الدنيا، والله أعلم بكيفية ذلك، وعقولنا أقصر وأدنى وأحقر من أن تحيط بالله عز وجل.

القول الثاني: التوقُّف؛ يقولون: لا نقول: يخلو، ولا: لا يخلو.

والثالث: أنه يخلو منه العرش.

وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية وأن الشمس تدور على الأرض إشكالاً؛ قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل الآخر؟! وثلث الليل الآخر إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية؛ ذهب إلى أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلاً دائماً؟!!

فنقول: آمن أولاً بأن الله ينزل في هذا الوقت المعين، وإذا آمنت؛ ليس عليك شيء وراء ذلك، لا تقل: كيف؟! وكيف؟! بل قل: إذا كان ثلث الليل الآخر في السعودية؛ فالله نازل، وإذا كان في أمريكا ثلث الليل؛ يكون نزول الله أيضاً، وإذا طلع الفجر؛ انتهى وقت النزول في كل مكان بحسبه.

إذا؛ موقفنا أن نقول: إنا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله؛ بأن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى الثلث الآخر من الليل، ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟!

* من فوائد هذا الحديث:

أولاً: إثبات العلو لله من قوله: «ينزل».

ثانياً: إثبات الأفعال الاختيارية التي هي الصفات الفعلية من قوله: «ينزل ربنا حين يبقى ثلث الليل الآخر».

ثالثاً: إثبات القول لله من قوله: «يقول».

رابعاً: إثبات الكرم لله عز وجل من قوله: «مَن يدعوني... مَن يسألني... مَن يستغفرني...».

* وفيه من الناحية المسلكية:

أنه ينبغي للإنسان أن يغتنم هذا الجزء من الليل، فيسأل الله عز وجل ويدعوه ويستغفره.

ما دام الرب سبحانه يقول: «من يدعوني... من يستغفرني...»، و (مَن): للتشويق؛ فينبغي لنا أن نستغل هذه الفرصة؛ لأنه ليس لك من العمر إلا ما أمضيته في طاعة الله، وستمر بك الأيام؛ فإذا نزل بك الموت؛ فكأنك وُلدت تلك الساعة، وكل ما مضى ليس بشيء.

● الحديث الثاني في إثبات الفرح، وهو قوله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من أحدكم براحلته...» الحديث، متفق عليه^(١).

* «لله»: اللام هذه لام الابتداء. «الله»: مبتدأ.

* «أشد»: خبر المبتدأ.

* «فرحاً»: تمييز.

* قال المؤلف: «الحديث»؛ أي: أكمل الحديث.

والحديث أن هذا الرجل كان معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فضلت عنه، فذهب يطلبها، فلم يجدها، فأيس من الحياة، ثم اضطجع تحت شجرة ينتظر الموت؛ فإذا بخطام ناقته متعلقاً بالشجرة... ولا أحد يستطيع أن يقدر هذا الفرح؛ إلا من وقع فيه... فأمسك بخطام الناقة، وقال: اللهم! أنت عبدي، وأنا ربك؛ أخطأ من شدة الفرح؛ لم يملك كيف يتصرف في الكلام!!

فالله عز وجل أفرح بتوبة عبده إذا تاب إليه من هذا الرجل براحلته، وليس الله عز وجل بمحتاج إلى توبتنا، بل نحن مفتقرون إليه في كل أحوالنا، لكن لكرمه جل وعلا ومحبته للإحسان والفضل والجود يفرح هذا الفرح الذي لا نظير له بتوبة الإنسان إذا تاب إليه.

* في هذا الحديث: إثبات الفرح لله عز وجل؛ فنقول في

(١) رواه البخاري (١٠٢/١١)، ومسلم (ص ٢١٠٢)، عن عدة من الصحابة بألفاظ مختلفة.

هَذَا الْفَرْحُ: إِنَّهُ فَرْحٌ حَقِيقِي، وَأَشَدُّ فَرْحًا، وَلَكِنَّهُ لَيْسَ كَفَرْحِ الْمَخْلُوقِينَ.

الْفَرْحُ بِالنِّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ هُوَ نَشْوَةٌ وَخَفَةٌ يَجِدُهَا الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ عِنْدَ حَصُولِ مَا يَسْرُهُ، وَلِهَذَا تَشْعُرُ بِأَنَّكَ إِذَا فَرَحْتَ بِالشَّيْءِ كَأَنَّكَ تَمْشِي عَلَى الْهَوَاءِ، لَكِنَّ بِالنِّسْبَةِ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ لَا نَفْسُ الْفَرْحِ بِمِثْلِ مَا نَعْرِفُهُ مِنْ أَنْفُسِنَا؛ نَقُولُ: هُوَ فَرْحٌ يَلِيقُ بِهِ عِزٌّ وَجَلٌّ؛ مِثْلُ بَقِيَةِ الصِّفَاتِ؛ كَمَا أَنَّا نَقُولُ: لِلَّهِ ذَاتٌ، وَلَكِنَّ لَا تَمَاثِلَ ذَوَاتِنَا؛ فَلَهُ صِفَاتٌ لَا تَمَاثِلَ صِفَاتِنَا؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَنِ الصِّفَاتِ فَرَعَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الذَّاتِ.

فَتَوْمَنْ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ فَرْحٌ كَمَا أُثْبِتَ ذَلِكَ أَعْلَمَ الْخَلْقَ بِهِ، مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَنْصَحَ الْخَلْقَ لِلْخَلْقِ، وَأَفْصَحَ الْخَلْقَ فِيمَا يَنْطِقُ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَنَحْنُ عَلَى خَطَرٍ إِذَا قُلْنَا: الْمُرَادُ بِالْفَرْحِ الثَّوَابُ؛ لِأَنَّ أَهْلَ التَّحْرِيفِ يَقُولُونَ: إِنْ اللَّهَ لَا يَفْرَحُ، وَالْمُرَادُ بِفَرْحِهِ: إِثَابَتُهُ التَّائِبِ، أَوْ: إِرَادَةُ الثَّوَابِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ يَثْبِتُونَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَخْلُوقًا بَائِنًا مِنْهُ هُوَ الثَّوَابُ، وَيَثْبِتُونَ الْإِرَادَةَ؛ فَيَقُولُونَ فِي الْفَرْحِ: إِنَّهُ الثَّوَابُ الْمَخْلُوقُ، أَوْ: إِرَادَةُ الثَّوَابِ.

وَنَحْنُ نَقُولُ: الْمُرَادُ بِالْفَرْحِ: الْفَرْحُ حَقِيقَةٌ؛ مِثْلَمَا أَنَّ الْمُرَادَ بِاللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ: نَفْسُهُ حَقِيقَةٌ، وَلَكِنَّا لَا نَمِثِلُ صِفَاتِنَا بِصِفَاتِ اللَّهِ أَبَدًا.

* وَيَسْتَفَادُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ إِثْبَاتِ الْفَرْحِ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ:

كمال رحمته جلّ وعلا ورأفته بعباده؛ حيث يحب رجوع العاصي إليه هذه المحبة العظيمة... هارب من الله، ثم وقف ورجع إلى الله... يفرح الله به هذا الفرح العظيم.

* ومن الناحية المسلكية: يفيدنا أن نحرص على التوبة غاية الحرص، كلما فعلنا ذنباً؛ تبنا إلى الله.

قال الله تعالى في وصف المتقين: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً ﴾ أي فاحشة؛ مثل: الزنى، واللواط، ونكاح ذوات المحارم... قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِمَّنِ الْنِسَاءُ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال لوط لقومه: ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ ﴾ [الأعراف: ٨٠].

إِذَا؛ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ ﴾؛ ذكروا الله تعالى في نفوسهم؛ ذكروا عظمته، وذكروا عقابه، وذكروا ثوابه للتائبين؛ ﴿ فَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾؛ فعلوا ما فعلوا؛ لكنهم ذكروا الله تعالى في نفوسهم، واستغفروا لذنوبهم، فيغفر الله لهم، والدليل: ﴿ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فأنت إذا علمت أن الله يفرح بتوبتك هذا الفرح الذي لا نظير له؛ لا شك أنك سوف تحرص غاية الحرص على التوبة.

* وللتوبة شروط خمسة:

الأول: الإخلاص لله عز وجل؛ بأن لا يحملك على التوبة مراعاة الناس، أو نيل العجاة عندهم، أو ما أشبه ذلك من مقاصد الدنيا.

الثاني: الندم على المعصية.

الثالث: الإقلاع عنها، ومن الإقلاع إذا كانت التوبة في حق من حقوق الأدميين: أن ترد الحق إلى صاحبه.

الرابع: العزم على أن لا تعود في المستقبل.

الخامس: أن تكون التوبة في وقت القبول، وينقطع قبول التوبة بالنسبة لعموم الناس بطلوع الشمس من مغربها، وبالنسبة لكل واحد بحضور أجله.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ﴾ [النساء: ١٨].

وصحَّ عن النبي ﷺ أن زمن التوبة ينقطع إذا طلعت الشمس من مغربها، والناس يؤمنون حينئذ، ولكن؛ ﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَوَ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] (١).

(١) لما رواه البخاري (٤٦٣٦)، ومسلم (١٥٧)، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها، ثم قرأ الآية».

هذه خمسة شروط؛ إذا تمت؛ صحت التوبة.

* ولكن؛ هل يشترط لصحة التوبة أن يتوب من جميع الذنوب؟!!

فيه خلاف، ولكن الصحيح أنه ليس بشرط، وأنها تصح التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره^(١)، لكن هذا التائب لا يصدق عليه وصف التائبين المطلق؛ فيقال: تاب توبة مقيدة، لا مطلقة.

فلو كان أحد يشرب الخمر ويأكل الربا، فتاب من شرب الخمر؛ صحت توبته من الخمر، وبقي إثمه في أكل الربا، ولا ينال منزلة التائبين على الإطلاق؛ لأنه مصرٌّ على بعض المعاصي.

* رجل تمَّت الشروط في حقّه، وعاد إلى الذنب مرة أخرى؛ فلا تنتقض توبته الأولى؛ لأنه عزم على أن لا يعود، ولكن سوّلت له نفسه، فعاد؛ إنما يجب عليه أن يتوب مرة ثانية... وهكذا؛ كلما أذنب؛ يتوب... وفضل الله واسع.

● الحديث الثالث في إثبات الضحك، وهو قوله ﷺ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»^(٢).

وفي بعض النسخ: «يدخلان»، وهي صحيحة؛ لأن (كلا)

(١) وهما روايتان للإمام أحمد، انظر كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم (١/٢٧٣).

(٢) رواه: البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠)؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه.

يجوز في خبرها - سواء كان فعلاً أو اسماً - مراعاة اللفظ ومراعاة المعنى، وقد اجتمعا في قول الشاعر يصف فرسين:

كِلَاهُمَا حِينَ جَدَّ الْجَرِيُّ بَيْنَهُمَا قَدْ أَقْلَعَا وَكَلَا أَنْفِيَهُمَا رَابِي

* الحديث يخبر فيه النبي عليه الصلاة والسلام أن الله يضحك إلى رجلين؛ عند ملاقاتهما يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخلان الجنة، وأحدهما لم يقتل الآخر إلا لشدة العداوة بينهما، ثم يدخلان الجنة بعد ذلك، فتزول تلك العداوة؛ لأن أحدهما كان مسلماً، والآخر كان كافراً، فقتله الكافر، فيكون هذا المسلم شهيداً، فيدخل الجنة، ثم منَّ الله على هذا الكافر، فأسلم، ثم قُتِلَ شهيداً، أو مات بدون قتل؛ فإنه يدخل الجنة، فيكون هذا القاتل والمقتول كلاهما يدخل الجنة، فيضحك الله إليهما.

* ففي هذا إثبات الضحك لله عز وجل، وهو ضحك حقيقي، لكنه لا يماثل ضحك المخلوقين؛ ضحك يليق بجلاله وعظمته، ولا يمكن أن نمثله؛ لأننا لا يجوز أن نقول: إن لله فماً أو أسناناً أو ما أشبه ذلك، لكن ثبت الضحك لله على وجه يليق به سبحانه وتعالى.

* فإذا قال قائل: يلزم من إثبات الضحك أن يكون الله مماثلاً للمخلوق!!

فالجواب: لا يلزم أن يكون مماثلاً للمخلوق؛ لأن الذي قال: «يضحك» هو الذي أنزل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ومن جهة أخرى؛ فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يتكلم في مثل هذا إلا عن وحي؛ لأنه من أمور الغيب، ليس من الأمور الاجتهادية التي قد يجتهد فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، ثم يقره الله على ذلك أو لا يقره، ولكنه من الأمور الغيبية التي يتلقاها الرسول عليه الصلاة والسلام عن طريق الوحي.

* لو قال قائل: المراد بالضحك الرضى؛ لأن الإنسان إذا رضي عن الشيء؛ سرَّ به وضحك، والمراد بالرضى الثواب أو إرادة الثواب؛ كما قال ذلك أهل التعطيل.

فالجواب أن نقول: هذا تحريف للكلم عن مواضعه؛ فما الذي أدركم أن المراد بالرضى الثواب!؟

فأنتم الآن قلتم على الله ما لا تعلمون من وجهين:

الوجه الأول: صرفتم النص عن ظاهره بلا علم.

الثاني: أثبتم له معنى خلاف الظاهر بلا علم.

ثم نقول لهم: الإرادة؛ إذا قلتم: إنها ثابتة لله عز وجل؛

فإنه تنتقض قاعدتكم؛ لأن للإنسان إرادة؛ كما قال تعالى:

﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران:

١٥٢]؛ فلإنسان إرادة، بل للجدار إرادة؛ كما قال تعالى:

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ فأنتم إما أن تنفوا

الإرادة عن الله عز وجل كما نفيتم ما نفيتم من الصفات، وإما إن

ثبتوا لله عز وجل ما أثبته لنفسه، وإن كان للمخلوق نظيره في

الاسم لا في الحقيقة .

* والفائدة المسلكية من هذا الحديث: هو أننا إذا علمنا أن الله عز وجل يضحك؛ فإننا نرجو منه كل خير .

ولهذا قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله! أويضحك ربنا؟ قال: «نعم». قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً^(١).

إذا علمنا ذلك؛ انفتح لنا الأمل في كل خير؛ لأن هناك فرقاً بين إنسان عبوس لا يكاد يرى ضاحكاً، وبين إنسان يضحك .

وقد كان النبي ﷺ دائم البشر كثير التبسم عليه الصلاة والسلام .

● الحديث الرابع: في إثبات العجب وصفات أخرى .

وهو قوله: «عَجَبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غَيْرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَرْزَلِينَ قَنْطِينًا، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ» .
حديث حسن^(٢) .

- (١) لما رواه وكيع بن عدس عن عمه أبي رزين قال: قال رسول الله ﷺ: «ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غيره، قال: قلت يا رسول الله! أويضحك الرب عز وجل قال: نعم؛ قال: لن نعدم من رب يضحك خيراً»، رواه أحمد (٤/١١، ١٢)، وابن ماجه (١٨١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٧)، والآجري في «الشریعة» (٢٧٩)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١/٢٤٤)، والحديث حسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠) مخطوط، كما نقله عنه الأخ علي الحلبي في تحقيقه لـ «العقيدة الواسطية» (ص ٤١)، وانظر ما بعده .
- (٢) من حديث أبي رزين عند ابن كثير في تفسيره، لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا=